مقياس مدخل إلى علم الآثار

الدرس الثاني: العلوم المساعدة لعلم الآثار

إن الاتجاه الحالي في علم الآثار يسعى إلى وضع أسس منهجية للبحث الأثري المتعدد الجوانب الذي يشترك فيه عدد من العلوم والتقنيات، ومعنى هذا أن عالم الآثار، عندما يبدأ في معالجة مادته أو مشكلته الأثرية، يجب أن ينظر إليها من الإطار المعيشي الكامل للإنسان سواء من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية أم من ناحية التضاريس الجغرافية للمنطقة التي سكنها، أو من ناحية مواردها الطبيعية من ماء ونبات وحيوان ومعادن وغيرها، أو من حيث المناخ وظواهر التعرية. وتتطلب هذه النظرة بطبيعة الحال تضافر العديد من العلوم والتخصصات التي تسهل عملية الربط بين هذه الأقسام التي تندرج ضمن مجموعة من العلوم المساعدة .

1- أقسام وميادين علم الآثار:

يتضمن علم الآثار فروعا وميادين متعددة تتطلب الإلمام بعلوم أخرى سواء كانت تقنية بحتة أو إنسانية، ويمكننا تركيب جدول مختصر، نحاول فيه حصر تلك الاختصاصات الأثرية بالشكل الذي قد يساعدنا على التوجه نحو جانب معين من ميدان علم الآثار، وكما نعلم فإننا نعيش عصر الاختصاصات وليس كما كان عليه الكتاب والعلماء في العصور الماضية؛ حيث يتدخلون في عشرات التخصصات ؛ فعلى ضوء هذه المفاهيم يمكننا تقسيم علم الآثار على الشكل التي:

علم آثار ما قبل التاريخ:

الذي يبدأ فيه فجر الإنسانية بعصوره الحجرية وينتهي مع ظهور أول آلة معدنية استعملها الإنسان؛ قسمت عصوره إلى الحجري القديم، الأسفل والأوسط والحديث، والحجري الوسيط، قسمت أنواع الإنسان في تلك الفترات إلى المنتصب والإنسان العاقل ونسبت مقتنيات صناعات ذلك الإنسان إلى أماكن اكتشافها أول مرة؛ ومن ذلك الأشولية والآشولية والفالوازية – الموسترية والنياندرتالية نسبة إلى أماكن في فرنسة وألمانية.

علم آثار فجر التاريخ:

وهو اصطلاح صعب التحديد،ولكن يمكن تعريفه بأنه الفترة التي تشمل كل الحضارات التي كانت تستعمل الأدوات المعدنية في الزراعة، و قبل أن يكتشف الإنسان الكتابة والتدوين.

علم آثار فجر الكتابة:

الذي يبدأ مع أول اكتشاف للتعبير الصوري في أفكار الإنسان في بلاد الرافدين وفي مصر،

علم آثار المرحلة التاريخية:

أو ما يسمى بما قبل الكلاسيكية الذي يشمل حضارات إنسانية بارزة نشأت على ضفاف الأنهار الكبيرة ومنها الحضارة الفرعونية والبابلية والسومرية والأخمينية والحثية والفينيقية.

علم الآثار الكلاسيكي:

الذي يشمل حضارات الإغريق والرومان والإتروسك والبارتيين والساسانيين والبيزنطيين والعرب قبل الإسلام.

علم الآثار ما قبل كولمبوس:

ويشمل حضارات القارتين الأمريكيتين قبل اكتشافهما من طرف كريستوف كولمبوس في أواخر القرن 15 م، وهو يشمل حضارات المايا والأنكا و الأزتيك والمشيكا.

علم الآثار الإسلامية:

: ويعني دراسة آثار الحضارة الإسلامية على امتداد رقعة الإسلام جغرافيا.

علم آثار جنوب وشرق أسيا:

ويشمل حضارات الصين والهند واليابان واندونيسيا والفيتنام وكمبوجيا.

علم آثار المحيطات:

ويشمل حضارات كافة الجزر والمحيطين الهادي والأطلسي.

علم آثار تحت البحار:

وهو يهتم بالبحث واكتشاف كل ما ضاع في عمق البخار من مدن ومراكب ،بما تحتويه من كنوز كالحلي و الأواني الخزفية والتحف المعدنية المختلفة وهي بمجموعها وثائق عظيمة الأهمية للأثري.

علم الآثار الحضاري (المعاصر):

وهو يركز على دراسة الكائنات والأشياء القديمة التي مازلت في عالمنا الحديث.

علم الآثار المادي:

الذي يعالج التنظيمات والمجالات في فترة زمنية معينة،قد تشمل مساحات مشغولة قديما بزراعة الحبوب أو بنشأة القرى أو المدن أو بالصناعات وبدايات انتشارها، أو بالحرف وتنظيماتها أو بالإنسان ذاته كفلاح أو صياد، والتطرق إلى أساليب الزراعة والصيد من خلال مخلفات ذلك الإنسان علم أثر المباني :يهتم بكل ما شيده الإنسان من مدن وقرى ومعابد ومرافق حكومية وقصور وقلاع وأسوار وملاعب وكذا الجسور والطرق ومقابر وسدود وقنوات مائية ...الخ.

علم آثار أسماء المواقع:

يهتم بدراسة أسماء المدن والقرى والأماكن ثم استخلاص من حقائق تاريخية واجتماعية منها.

2- العلوم المساعدة:

علم التاريخ:

أول تعارف بين التاريخ والإنسان يبدأ وهو طفل في الابتدائية ومع تقدمه في الدراسة يكتشف كتابا آخر يختلف عن ما عرفه من قبل؛ ومن هنا يبدأ بالتساؤل وهو يقرأ في التاريخ ويبحث عن الهدف من دراسته لهذه المادة،ويواجه مشكلة تحسين فهمه لهذا التاريخ، فيبدأ بتحليل العبر التي يستخلصها من محتوى كتابه، فيرى أنه عبارة عن قصة حياة إنسان عبر الزمن ويعرف أن كل الأحداث التي مرت هي من صنع الرجال الذين ماتوا ، فيكتشف أنه هو الآخر وكل مجتمعه المعاصر له منهمكون في صنع صفحة أخرى من التاريخ مع اختلاف الأسماء والأعوان، وانه سيصبح قريبا هو ومجتمعه على صفحات تاريخ آخر ،يقرأه جيل آخر سيأتي بعده. وعليه فمن أجل أن نساعد تلميذ التاريخ على هضم واستيعاب العبر الموجودة ،من دراسة التاريخ،يجب أن نعمل على ربط الأحداث التي مرت بشخصية« تلميذ التاريخ» ونعزز فيه الثقة في هويته الوطنية التي تعد نتيجة لتلك الأحداث التي يقرأها مع تحذيره بأن الكتب التاريخية في السابق كانت تستهدف قبل كل شيء شخصيته الوطنية بأسلوب منهجي ذكي. وعلينا تحذيره من الوقوع في مصيدة المؤرخ الذي يحاول أن يبرر ما يريد اختياره بتسلسل معين للوقائع والأحداث وإهمال الكثير مما تدحض أحداثه.

إن مفهوم لفظة التاريخ باللغة اليونانية هو فعل النظر أو شاهد العيان، فما مدى صحة هذه الشهادة التي تحكي لنا جملة من الأحداث التي عاشها البشر عبر قرون عديدة وعلى امتداد مساحات جغرافية متباينة، وهي بلا شك ستتكرر في قرون تالية وعند أماكن أخرى بصفة قريبة أو بعيدة عن الأحداث الأولى، وبما أن المؤرخ حسب التعريف اليوناني هو شاهدنا، فعلينا أن ندرس خلفية هذا الشاهد ونستقصي جهود أو جذور فكرة واتجاه المدرسة التي ينتمي إليها. ذلك لأنه هو الذي يرسم لنا لوحة الماضي التي نتأملها من خلال كتابته، وكم من مؤرخ حاول أن يصيغ لنا «حقائق» من خلال نتف متقطعة في قصة عابرة أو حدثا ماضيا لا قيمة له ،فسماها «عبرا تاريخية» كما يستحضر المؤرخ في كل لحظة في ذهنه، صور الأحداث وعبرها، فيحس أنها أحداث مرت وانتهت، ومن خلال إحساسه هذا يحاول أن يلقي ضوءا وافيا على صيغة تدوينه للتاريخ كما يستعين بالوثائق المتوفرة ليدعم وجهة نظره وبذلك يعكس لنا الأفكار والمشاكل في وقت كتابته لمؤلفه التاريخي وهو كذلك يعكس لنا ذاته أولا، قبل أن يحيلنا على المرحلة الزمنية التي اختارها كموضوع وبالتالي يثبت لنا أنه كان يكتب الحاضر بصيغة الماضي، لأن هذا الحاضر يتطلب العودة إلى ذلك الماضي للاستعانة به في تأكيد الحاضر نفسه.

وعلى ذلك فإن العلاقة بين علمي التاريخ والآثار لا تنحصر في أن المعرفة بحضارة الإنسان هي حصيلة تتراكم على مر الزمان، ويساعد علم الآثار على مدها بالمعلومات، لان المؤرخ لا يجابه هذا الماضي بمفرده مباشرة، وإنما يجابهه عن طريق الآثار والنصوص التي خلفها هذا الإنسان،وعلم الاثار هو الذي يعتمد على جمع هذه المخلفات و تحليلها لاستكشاف حقيقة الماضي.

علم دراسة الهندسة المعمارية والفن:

إذا كان هيرودوت وأرسطو قد عبرا بوضوح عن فكرة اختلاف إحساس الأوربيين بالديمقراطية ورضوخ الأسيويين للعبودية، فإن هذه الأفكار مازالت محتضنة من قبل مؤرخين من أحفادهما في أوروبا وغيرها،بل أنها تطورت وزادت في تطرفها رغم أن الحقائق التاريخية تشير وتؤكد على ترابط متكامل بين حضارات وثقافات شعوب مختلفة ومنها شعوب البحر الأبيض المتوسط.لكن أحداث القرون الوسطى تعكس لنا وجها آخر لمثل تلك الفلسفات ،فقد كان الإسلام سيد البحر المتوسط المتحضر،فظهرت الحركة الدينية التي تدين «الحضارة البربرية» وتطرح فكرة «المسيحي والكافر» كما نرى خلال القرن الثالث عشر (13) أوربا معجبة ومبهورة بالحضارة المادية والثقافية المزدهرة في الشرق، وفي القرنين 18 و19 رأينا الأثريين والفنانين وهم يبحثون في مصادر الفن والثقافة في الشرق ،وقد أدى اطلاعهم على تلك الكنوز إلى نوع من الإخصاب في مجالات الفنون التشكيلية والرسم وبالتالي إعادة النظر في تاريخ الفن ودحض مبدأ الامتياز الأوربي الذي احتكر مادة تاريخ الفن حتى مطلع القرن 20.

إذا ألقينا نظرة فاحصة على تركيب بناء المسجد لا وجدناه يختلف عن الكنيسة و المعبد الوثني في زخرفته وتخطيطه وإضاءته وأسلوب الصلاة فيه،فهو ليس تربيعي مثل المعبد الإغريقي ولا طولي مثل الكنيسة بل إنه عرضي سيسمح لأكبر عدد من المصلين ليقفوا كتفا بكتف،وتلك ظاهرة اجتماعية بالغة الأهمية،توحي بالمساواة وتنفي الطبقية والكهنوتية المعروفة عند غير المسلمين.

أما الزخارف النباتية والهندسية والألوان الزاهية ،فهي عناصر تزيد البناء جمالا والروح اطمئنانا دون حاجة إلى تماثيل تراجيدية أو لوحات غامقة أو إضاءة مرهبة،وبهذا تتحقق في بيت العبادة المهمة الوظيفية والتجريدية الموسيقية المتكاملة،لأن الصلاة عملية تأمل عميق وليست مسرحية.

نستخلص من هذا الفن وتلك العمارة التي نجح الإسلام في تشكيلها، يعتبر ثروة ثقافية وحضارية للإنسان ويعتبران شهادة عبر الزمن لأصالة الشخصية الإسلامية رغم تعدد الأجناس والألوان واختلاف الثروات وامتداد الأرض، وهي حافز على إعادة النظر في عقد الغرور والاستعلاء ونزوات السيطرة والاستغلال واحترام خصوصية كل ثقافة لأن ذلك حق وواجب لأن تجاهل مساهمة الشعوب في إثراء التراث الإنساني، هو الإصرار على محو شخصيتها وتشويه هويتها الوطنية. ومن المصيبة أن يكتب التاريخ منتصرا يحاول الإيحاء بأن سيطرته كانت حتمية تاريخية فرضها تفوقه الحضاري والثقافي والمصيبة أكبر عندما يتبنى البعض تلك الآراء بعد أن درسوا أولائك المؤرخين والأثريين

علم دراسة النصوص المدونة:

وهي دور هام في التعريف بالجوانب الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية وبالشخصية الوطنية لأصحاب تلك النصوص القديمة المكتوبة،فانتشار نص معين مكتوب بلغة أو بلهجة معينة في مناطق متباينة، يشكل دليلا على انتشارا لمجموعة البشرية التي كانت تتحدث بتلك

اللهجة وتكتب بتلك اللغة في مناطق اكتشاف تلك الكتابات أو أنها يمكن أن تدلنا على تواجد مجموعة بشرية معينة في تلك الأماكن، كما أن وجود كتابات بلغات مختلفة في منطقة جغرافية معينة يشير غالبا إلى أن تلك المنطقة كانت مكان تلاق أو مرور للمجموعات التي كانت تتحدث بالغات المكتشفة، وأسباب التلاقي أو المرور قد تكون اجتياحا عسكريا أو تعاملا اجتماعيا أو توافقا دينيا، يقوم بتأثيره قوم يعيدون إنشاء نصب رمزي لإله معبود لهم في تلك المنطقة مع تدوين تفاصيل وأحداث على ذلك النص لتخليد ذكرى منشأة.

ومن هنا تبرز أهمية جمع وتصنيف وتحليل جميع الكتابات القديمة المكتشفة في القطر الجزائري مثلا والعمل على استخلاص الحقائق المتعلقة بدور شعب هذا القطر ومعرفة مدى امتداده عبر جذور التاريخ وبالتالي تحديد إيطار هويته الوطنية بالصبغة العلمية الصحيحة.

علم دراسة الفخار:

وهو مؤشر علمي ومادي يدل على نشاط و هجرات وتبادلات الشعوب وكذا دليل على درجة نمو إمكانيتها الصناعية وحسها الفني ،كما يعد مادة ثمينة للمقارنة والتحليل في تحديد و ربط الطبقات الأثرية من موقع إلى آخر وهو بالتالي برهان على هوية الشعوب:

علم المسكوكات:

(علم دراسة النقود) وهي وثائق تاريخية هامة تعكس آثار الأحداث والمشاكل عبر الماضي ،مما يتعلق بالتاريخ السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي لأمة من الأمم أو لبلد من البلدان حلال مرحلة من المراحل التي تمر بها، وبهذه الوثائق يتمكن الأثري أو المؤرخ باستعراض منطقي وعلمي للربط بين الوقائع الاقتصادية وتأثيرها على المجتمع وعلى مجريات الأحداث السياسية والعسكرية والدينية والاجتماعية، لأن هناك نوع من التداخل المستمر بين تلك الوقائع، مما يؤكد استحالة التقرير الحاسم بالاعتماد على واحد من هذه العناصر دون الأخذ بالمجموع.

وكنموذج في استخدام النقود للتحليل التاريخي و الأثري نأخذ نقود الأمير عبد القادر ونركز على النقاط الأساسية فيها و هي الشعارات المسجلة عليها،فنقرأ: «إن الدين عند الله الإسلام» مضربة في الأعوام 1250هـ-1255هـ (1834م- 1839م) و«ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفانا مسلمين » مضروبة عام 1256 هـ (1840 م).

الأنتروبولوجية والإتنولوجية:

هذان العلمان هما، مثل التاريخ، من أشد الاختصاصات المساعدة التصاقاً بعلم الآثار. فالأول يبحث في التطور التاريخي الطبيعي للإنسان، والثاني يبحث في ثقافاته وعاداته وتقاليده، ولذلك يرى بعض العلماء أنهما بحثان تاريخيان وبالتالي أثريان.

علم التقويم (الكرونولوجية):

وهو من العلوم التاريخية المفيدة جداً لعلم الآثار. وموضوعه ينصب على التقاويم المختلفة لدى الدول والشعوب. ومنذ الألف الثالث ق.م احتاج الإنسان إلى تسجيل ما يهمه في حياته الاقتصادية والدينية والسياسية فظهرت في مصر والرافدين وسورية تقاويم لسنوات حكم الملوك

مرتبطة بالأحداث التي مروا بها أو جرت في أيامهم. ومهمة المختص في شؤون التقويم دراسة هذه التقاويم ومقارنتها واستنتاج التاريخ المطلق لملك أو حدث. وهذا العلم غاية في الصعوبة ولم يتفق العلماء بعد على تقويم صحيح لأحداث الألف الثالث والثاني ق.م في الرافدين مثلاً، فهناك أصحاب التقويم الطويل والتقويم القصير والمتوسط ويقوم خلاف بين هؤلاء على عهد **حمورابي** مثلاً يتجاوز المائة عام. ومن المهم للأثري هو الاعتماد على الكرونولوجية في تأريخ السويات الأثرية التي يكتشفها. ولا جدوى من درس التعاقب الطبقي الأثري «الستراتيغرافية» من دون خلفية تقويمية. وتعرف صعوبة علم التقويم من المطابقة بين التقويمين الهجري والميلادي فكيف يكون الأمر إذا كان تقويم إحدى الأسر يرجع إلى ثلاثة آلاف عام قبل ذلك وكان مفككاً متناقضاً ملتبساً. ويتبع هذا العلم علم الأنساب وقد برع العرب جداً في هذا العلم .

التصوير الجوي:

يساعد التصؤير الجوي في التعرف على أماكن الآثار ولا سيما الأبنية الطينية منها، عن طريق تحديد مخططات هذه الأبنية طبقا لعلامات معينة تظهر في التربة والظلال، وبهذا يساعد التصوير الجوي الأثري ليس فقط على تحديد الرسم المعماري للأبنية الأثرية المدفونة، وإنما على تحديد المخططات العامة للمواقع الأثرية، بل والطرق التي تربط بينها أيضا.